الفساد في إسرائيل

الدكتور عبد الستار قاسم

شارون ليس هو رئيس الوزراء الإسرائيلي الوحيد الذي يتم التحقيق معه حول قضايا فساد. تم التحقيق مع نتن ياهو، ومع رئيس الدولة عازر وايزمان، وقديما مع اسحق رابين. وتم التحقيق أيضا مع وزراء مثل صاحي هانجبي واسحق مورداخاي. أفلت عدد من السياسيين حتى الآن من التهمة والإدانة بينما دفع بعضهم الثمن مثل رئيس الدولة الذي اضطر إلى الاستقالة ووزير الدفاع الذي لحقت به إهانات حولت حياته إلى جحيم.

عندما يصل الفساد إلى الرأس فلا بد أن الذيل قد خرب تماما. هذا صحيح بالنسبة للكيان الصهيوني. الفساد لا ينحصر في كبار المسؤولين الذين يطفون على السطح أو يبقون تحت الماء، وإنما يمتد إلى كل قطاعات الناس اليهود وغير اليهود. الرشوة منتشرة، وكذلك أعمال النصب والاحتيال والاختلاس والتزوير والغش والتهريب والهروب من الضريبة، الخ. لم يعد التعامل بين الناس سهلا أو متميزا بالثقة المتبادلة، إنه تعامل يتصف بالحذر الشديد والريبة والشك. التعامل مع الآخرين يقوم على الافتراض بأن الطرف المقابل عبارة عن لص ومحتال ويجب اتخاذ مختلف التدابير من أجل عدم الوقوع في الغبن والابتزاز.

تنتشر في إسرائيل العصابات السفلية والفوقية. تهتم العصابات السفلية بقضايا تهريب المخدرات والاعتداء الجسدي والاتجار بالنساء وتبييض الأموال والسرقات المالية منها وغير المالية. أما العصابات الفوقية فتهتم أساسا بما يسمى عربيا بالإكراميات وتبادل المصالح والمحسوبيات والوساطات والرشوة. يصنف السياسيون وبعض عامة الناس من العصابات الفوقية التي تحاول تحقيق منافع خاصة دون أن تترك وراءها آثار تدينها. لكن الجرّة لا تسلم دائما.

إسرائيل القديمة لم تعد موجودة. بدأت إسرائيل عهدها في الوجود بالعمل الشاق والتعاون المتبادل والعمل الجماعي والتفاني ونفي الذات. كانت إسرائيل مع بداية عهدها عبارة عن خلية نحل لا تهدأ ليلا أو نهارا ولا تعرف للراحة طعما. امتاز روادها برغبة قوية واستعداد استنفاري لبناء الدولة على أسس علمية وأخلاقية واجتماعية صلبة بحيث كانوا جميعا عبارة عن أسرة واحدة متماسكة متحابة على الرغم من تشتت منابعهم. ولهذا كانت خطاهم البنائية واسعة وسريعة وعلى أرضية صلبة. تعززت هذه الروح بالاحترام الذاتي القوي بعد الانتصارات التي حققتها إسرائيل على العرب. شعر اليهودي أنه عملاق ويستطيع أن يقهر الأعداء بأقل الخسائر الممكنة. ولم تكن نظرة العالم الخارجي لإسرائيل عموما تختلف عن النظرة الذاتية بالأخص بعد حرب حزيران. حظي اليهودي بنظرة عالمية من الإجلال والإكبار جعلته يندفع نحو المزيد من الإنجازات على مختلف الصعد.

لكن المسألة أخذت بالتبدل مع عدم حسم الأمور مع العرب. لا العرب استسلموا ولا السلام أتى ولا الأمن الإسرائيلي أصبح مستتبا بدون تحديات. والمعضل الأكبر أن العدو الذي لا يريد أن يستسلم أضعف من أن يخوض حربا ناجحة متممة بالنصر أو لفرض تحد حقيقي يؤدي إلى الاستنفار وحشد الطاقات من الجانب الإسرائيلي. أي أن ضعف العرب أحدث خللا في المعنويات اليهودية. ولهذا بدأت الحياة في إسرائيل تسير بنوع من الرتابة البعيدة عن متطلبات مواجهة التحدي، وأخذت قيم جديدة تغزو الناس في عقولهم ومسلكياتهم.

ثقافة البناء ومواجهة التحديات تختلف إلى حد كبير عن ثقافة الاستقرار. تتطلب الأولى استعدادا من نوع خاص تكون التضحية عنوانه والعمل الشق الطريق نحو تحقيقه، أما حياة الاستقرار

فتركز على نوعية الحياة الخاصة أكثر مما تركز على المصلحة العامة والتضامن. منذ عام 1973 وإسرائيل تعيش حياة اللاسلم واللاحرب والتي يغلب عليها الضجر والتردد وضبابية الرؤية والظنون حول المستقبل. صحيح أن دولا عربية خرجت من معادلة الصراع، إلا أن قوى أخرى قد دخلت المعترك دون أن تكون هناك حروب شاملة وسريعة كما اعتادت إسرائيل.

دخلت مع هذه المرحلة الثقافة الاستهلاكية المتعددة الجوانب، وسادت روح الإحباط بسبب عدم حسم الانتصارات العسكرية للنتائج السياسية المطلوبة. وغلب على إسرائيل الكثير من التوجهات السياسية الهادفة إلى الوصول إلى حل مع العرب، وتوجهات اجتماعية متعددة بهدف رسم الملامح الثقافية والاقتصادية للدولة. أدى هذا إلى تشتت الأثقال السياسية والاجتماعية وظهرت أحزاب كثيرة أكبر بكثير مما تستطيع دولة صغيرة مثل إسرائيل أن تتحمله. أي أن الشرذمة على الصعيدين السياسي والاجتماعي قد حصلت فعلا.

للشرذمة متطلبات ولائية واستقطابية وكيدية. تحول السباق بين الفئات المختلفة من الإنجاز إلى سباق على استقطاب أكبر عدد ممكن من المؤيدين والناخبين. بالتأكيد قاد هذا إلى المحاباة والوساطات والمحسوبيات، وغير ذلك من الموبقات التي تخرب النسيجين الاجتماعي والأخلاقي.

أصابت التطورات النسيج الأخلاقي في إسرائيل بعاهات كثيرة بحيث أن روح الخمسينيات قد اختفت لصالح الأنانية والإفراط في حب الذات الذي يبيح المحرمات ما دامت في خدمة المصلحة الخاصة. ولحقت أضرار كبيرة في الوضع الاجتماعي بحيث تفشى التمييز العنصري ليصل إلى التنظيم السياسي. للشرقيين أحزاب وللغربيين أخرى، للمتدينين عالمهم الخاص وللعلمانيين عالم آخر، وهكذا. في إسرائيل، هناك مواطنون من الدرجة الأولى، وآخرون من درجات أخرى قد تصل إلى ثمانية.

كعربي، أنظر إلى هذه التطورات على أنها جزء من الحرب. النسيج الأخلاقي هو القاعدة الأساسية التي تبنى عليها الشعوب والأمم، فإذا فسدت فإن البناء برمته يكون فاسدا، والعكس صحيح. الأمم قوية بأخلاقها أولا ومن ثم بإنجازاتها المادية بما فيها العسكرية، والأمم الفاسدة تبقى أبدا تحت الذل والهوان. و(لو) كانت هناك سياسة عربية نحو دحر العدو لتم استغلال الوضع لبث المزيد من التدهور الأخلاقي والاجتماعي في إسرائيل.

ومع هذا، علينا أن نتذكر أننا نحن العرب ما ولنا نعاني من فساد أكبر بكثير وأوسع مما يجتاح الناس في إسرائيل.